قراءة في تفسير ابن كثير

سورة المجادلة

أ. أناهيد بنت عيد السميري

غفر الله لها ولوالديها

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، ونسأله بمنّه وكرمه أن يجعل القرآن الكريم ربيعًا لقلوبنا، ونورًا لصدورنا، وجلاء لأحزاننا وهمومنا، اللهم آمين.

لا زلنا بفضل الله في سورة المجادلة المباركة التي فيها إشارة لأمر عظيم وعقيدة مهمة من العقائد التي يجب أن يحملها المؤمن في قلبه وهي:

- الإيمان بكمال رب العالمين.
- وأنه الأول الذي ليس قبله شيء.
- والآخر الذي ليس بعده شيء.
- والظّاهر الذي ليس فوقه شيء.
- والباطن الذي ليس دونه شيء، فهو أقرب لكل شيء من كل شيء -سبحانه وتعالى-.

فكانت هذه السورة الكريمة شاهدًا عظيمًا على هذا المعنى، وقد مر معنا أن مطلع هذه السورة يشير إلى اسم الباطن، فقد ابتدأت هذه السورة بداية لا يشاركها فيها أي سورة في القرآن: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ) ونحن نعتقد أن سمعه أحاط بجميع الأصوات، (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ) فهو -سبحانه وتعالى- الباطن، القريب من كل شيء، أقرب من كل شيء لكل شيء، فهو -سبحانه وتعالى- مع خلقه، وهذا المعنى ظهر بوضوح -معنى أنه الباطن- والذي من آثار معناه أنه مع الخلق.

فتبين لنا بكل وضوح أنه -سبحانه وتعالى- مع خلقه. لما سمعنا قوله تعالى: (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ) إلى أن نسمع (وَلا أَكْثَرَ إِلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا) فهو مع خلقه.

وتبين لنا أن معيّة الله نوعان:

- المعيّة العامة الظاهرة في سورة المجادلة؛ معيّة العلم والإحاطة، فعلمه -عزَّ وجلَّ- محيط بخلقه، وهو مطلع عليهم، يسمع كلامهم -سرهم ونجواهم- ويرى مكانهم، فلا شك أبدًا في إحاطة علم الله بالخلق، وإحاطة سمعه بهم، وبصره نافذ فيهم. وهذه المعيّة لجميع الخلق.

- وهناك المعيّة الخاصة؛ معيّة القرب، معيّة خاصة بأهل الإيمان (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)[1]، (وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)[2] معيّة القرب هذه تتضمن الموالاة والنصر والحفظ.

وكلا المعنيان يدور حول المصاحبة من الله للعبد، لكن هذه المصاحبة العامة التي هي مصاحبة اطلاع وإحاطة، والخاصة مصاحبة موالاة ونصر وإعانة. ولا زلنا نؤكد أن كلمة "مع" في لغة العرب: تفيد الصحبة اللائقة. لا تشعرك بامتزاج ولا اختلاط، إنما نقول إنه -سبحانه وتعالى- عالٍ على خلقه، مستوٍ على عرشه، معهم -سبحانه تعالى-، علمه محيط بهم، وسمعه أيضًا مع علمه محيط بهم، وبصره نافذ فيهم.

وهذا لأهل الإيمان شفاء لكل داء؛ حين تسمع أن الله معك، وأنه -عزَّ وجلَّ-، يسمعك ويراك. خصوصًا لو تفكرنا في المعيّة الخاصة فأتينا بأسبابها؛ صبرنا (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)، (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ)[3]

---

[1] () البقرة: 153.
[2] () العنكبوت: 69.
[3] () النحل: 128.

كيف لو شعرنا بهذا، هل يبقى شيء يخيفنا والله معنا؟! هل يبقى شيء في الكون يسبب لنا الهمّ والله معنا؟!

فهذه المعيّة، وهذا الاسم العظيم (الباطن) دواء لقلب كل مهموم ومغموم، دواء لقلب كل خائف، وهكذا يتداوى الإنسان بالقرآن. القرآن يزيد الإنسان معرفة بالرحمن.

هذا الذي تدارسناه بالأمس، واليوم نضيف إضافة جديدة على هذه الآية العظيمة وننظر إلى بدايتها:

الله -عزَّ وجلَّ-، يقول: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ) ولما تناقشنا أمس تبين لنا أن قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ) يدل على أن هذا الأمر يصل إلى حد أنه يكون مرئيًا بالعين، كأنه يقال: (أَلَمْ تَرَ) الله عالمًا؟ فكيف يرى الإنسان هذه الصفة العظيمة لرب العالمين؟ (أَلَمْ تَرَ) كأن هذه الصفة تُرى بالعين، فيقول أحد: كيف أرى أن الله عالم؟ أول فائدة نذكرها هنا أن أهل العلم ذكروا إن من معاني اسم الله الظّاهر: ظهور كماله -عزَّ وجلَّ-، بحيث أن الخلق يظهر لهم شواهد الكمال، هذه آية سورة الحديد: (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ). يشهد الخلق على ظهوره، يعني أن الخلق يرون صفات كماله ظاهرة، قد ذكر بعض أهل العلم إن هذا

من معاني (اسم الظاهر)، النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- فسّر لنا هذا «الظاهرُ فليس فوقَك شيءٌ» فهو يشير إلى العلو، وأيضًا يشير إلى معنى ظهور صفات الله. ظاهر: يعني وجوده بالأدلة الدالة عليه. فيصبح هناك معنيان:

1- ظاهر على كل شيء، يعني: عالٍ فوق كل شيء، فلا شيء أعلى منه.

2- وظاهر أيضًا كما نفهم أن هذا الأمر ظاهر، فأدلة وجوده وكماله ظاهرة.

وهذا من معاني اسمه الظاهر؛ الظاهر الذي ليس فوقه شيء، الظاهر الذي ظهرت أدلة كماله.

إذا فهمنا هذا في اسم الظاهر ستأتي سورة المجادلة تشير إلى هذا المعنى، فيقول لنا رب العالمين، مخاطبًا: (أَلَمْ تَرَ) أدلة إحاطة علمه بكل شيء -عزَّ وجلَّ- ظاهرة، (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ) فكأنه يقال لنا إن أدلّة أن الله -عزَّ وجلَّ- يعرف ما في السماوات والأرض ظاهرة، لكن أنت تنبه لها.

كيف تكون أدلة علمه ظاهرة؟

الأمر الأول: أليس إيجاد الخلق البديع في كل مكان شاهد على علمه؟! بلى، بمعنى لو ضربنا مثلًا للخلق لتقريب معنى أن أفعال الخلق تأتي من علمهم، لو نظرنا لأفعالهم سنعرف علمهم؛ حين ينظر الناس إلى الاكتشافات التي حولهم، التي في حقيقتها كَشَفها رب العالمين لخلقه، لكن الناس يقولون: "هؤلاء متعلمين وعندهم علم، ومن ثم كانت النتيجة أنهم اكتشفوا أو صنعوا هذه الأشياء!" فحين يرى الناس الاختراعات يستدلون بها على العلم الذي عند الخلق، وهو في الحقيقة، كما قال الهدهد في سورة النمل واصفًا رب العالمين أنه يعلم أنه: (يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) بمعنى أن هذه الأمور يكشفها رب العالمين لخلقه وهي مخبأة فيخترعون وينتفعون. لكن ليس هذا هو ما يشغلنا الآن، ما يشغلنا في هذا المعنى أن الناس من خلال اختراعات الناس يقال: "عندهم علم" انظر حولك إذًا، انظر إلى أفعال الله المحكمة المتقنة المتّسقة المنتظمة، وكل من كانت أفعاله كذلك فهو عالم، والله -عزَّ وجلَّ- كل أفعاله لها هذه الصفة؛ محكمة متقنة متّسقة منتظمة، فنحن نرى أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض.

الأمر الثاني الواضح الذي نرى فيه علم الله -عزَّ وجلَّ- ظاهرًا، واصلًا إلى حد درجة الظهور والجلاء، كأن علم الله أمر تكاد تنظر إليه من ظهوره وجلائه: وذلك أننا نجد في الكون أمور عظيمة دالة على علمه، ظاهرة، فكم استجاب دعاءنا! كم لطف بنا! كم حصل في وجداننا تفكير ما نطقنا به فعاملنا -سبحانه وتعالى-، بما في وجداننا! أمنية يحققها لنا، خوف يؤمنه لنا، سؤال يجيبنا عليه، (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ) علمه محيط بخلقه وسمعه كذلك، وبصره نافذ فيهم.

فأصبحت الآية السابعة أولها يدل على أن الله ظاهر، بمعنى: أن أدلة وجوده وكماله وعظمته ظاهرة، ثم آخرها يدل على أنه الباطن، بمعنى أنه أقرب إلى كل شيء من كل شيء. ثم ختمت الآية بقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ).

فما أعظم هذه العقيدة وما أهميتها! هذه العقيدة مهمة تحتاج إلى كثير من المراجعة، ولها أثر عظيم على نفس الإنسان، نسأل الله أن يزيل عنّا الحجب ويوصلنا إلى اليقين، اللهم آمين.

نبدأ اليوم من الآية الثامنة حتى العاشرة، إن شاء الله نوفق لإنهائها :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (8) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (9) إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (10))

هذه الآيات المباركات سلوى لأهل الإيمان من فعل أهل الكفر والنفاق، وكانت المقدمة السابقة من أول السورة إلى هذا الموطن تشير إلى المعنى الذي يجب أن يكون حاضرًا في أذهاننا؛ وهو قربه -عزَّ وجلَّ-، وبطونه، وأثر هذا المعنى على سلوكنا، وبيان أن هذ السلوك -وهو سلوك النجوى- قد يكون من الأسلحة التي يستعملها أهل الباطل على أهل الحق، فيطمئننا رب العالمين، ويبين لنا أن التوكل عليه سبب

للكفاية. لذلك في آخر الآية العاشرة نجد (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ). نحن سنستحضر أنّ:

- أول السورة كان نجوى -كلام في السر- بين المرأة والنبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-.

- ثم أتت أحكام الظّهار التي هي جواب على شكوى المرأة. المرأة أخذت بالسبب وذهبت للنبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- تشتكي إلى الله، فذهابها إلى النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- سبب وشكواها إلى الله هو الطريق الصحيح الحقيقي الذي يسلكه الإنسان بقلبه إلى ربه.

- وكان نتيجة ذلك نزول الآيات التي تدل على حكم الظّهار، ثم بيان أن لله حدود.

- ثم بيان أن هناك من يحادّ الله ورسوله، ثم في نفس الآيات التي فيها خبر عن أولئك القوم الذين حادوا الله ورسوله كيف سيعاقبهم رب العالمين، بيّن الله أنه (عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ).

- وبيّن الله قربه لخلقه وأنه (فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) ثم بيان معيّة رب العالمين.

- ثم عدنا مرة أخرى إلى النجوى والكلام الذي فيه تسارر، وبيان أنه يمكن أن يكون في هذا خير وفي هذا شر

- فإذا عرفت هؤلاء الذين يحادّون الله ورسوله، اعلم أن سلوكهم النجوى وأنهم يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول.

فهمنا أن النجوى يمكن أن تكون خيرًا أو شرًا، يمكن أن تكون سلاح خير في يد أهل الإيمان، أو سلاح شر في يد أهل الباطل، وفي كل الأحوال، الله -عزَّ وجلَّ-، الباطن القريب يسمع ويرى، شهيد على خلقه، عليم بأحوالهم، في كل الأحوال يبقى هذا في أذهاننا.

نقرأ كلام ابن كثير رحمه الله في تفسير الآيات:

قَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى) قَالَ: الْيَهُودُ وَكَذَا قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ، وَزَادَ: كَانَ بَيْنَ النَّبِيِّ -صلَّى الله عليه وسلَّم- وَبَيْنَ الْيَهُودِ مُوَادَعَةٌ، وَكَانُوا إِذَا مَرَّ بِهِمْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ -صلَّى الله عليه وسلَّم- جَلَسُوا يَتَنَاجَوْنَ بَيْنَهُمْ، حَتَّى يَظُنَّ الْمُؤْمِنُ أَنَّهُمْ يَتَنَاجَوْنَ بِقَتْلِهِ-أَوْ: بِمَا يَكْرَهُ الْمُؤْمِنُ-فَإِذَا رَأَى الْمُؤْمِنُ ذَلِكَ

خَشيهم، فَتَرَكَ طَرِيقَهُ عَلَيْهِمْ. فَنَهَاهُمُ النَّبِيُّ -صلَّى الله عليه وسلَّم- عَنِ النَّجْوَى، فَلَمْ يَنْتَهُوا وَعَادُوا إِلَى النَّجْوَى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ).

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُنْذِرِ الْحِزَامِيُّ، حَدَّثَنِي سُفْيَانُ بْنُ حَمْزَةَ، عَنْ كَثِيرٍ عَنْ زَيْدٍ، عَنْ رُبَيح بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: كُنَّا نَتَنَاوَبُ رَسُولَ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم-، نَبِيتُ عِنْدَهُ؛ يطرُقه مِنَ اللَّيْلِ أَمْرٌ وَتَبْدُو لَهُ حَاجَةٌ. فَلَمَّا كَانَتْ ذَاتُ لَيْلَةٍ كَثُر أَهْلُ النَّوْبِ وَالْمُحْتَسِبُونَ حَتَّى كُنَّا أَنْدِيَةً نَتَحَدَّثُ، فَخَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- فَقَالَ: "مَا هَذَا النَّجْوَى؟ أَلَمْ تُنْهَوا عَنِ النَّجْوَى؟ ". قُلْنَا: تُبْنَا إِلَى اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا كنا في ذكر المسيح، فَرقا مِنْهُ. فَقَالَ: "أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنْهُ؟ ". قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: "الشِّرْكُ الْخَفِيُّ، أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يَعْمَلُ لِمَكَانِ رَجُلٍ". هَذَا إِسْنَادٌ غَرِيبٌ، وَفِيهِ بَعْضُ الضُّعَفَاءِ.

هنا ذكر ابن كثير -رحمه الله- سببين في نزول قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ) هذا هو المقصود؛ نهوا عن النجوى ثم حصلت منه العودة

إلى النجوى مرة أخرى. فالسبب الأول: دل على أن اليهود هم سبب نزول الآية.

والسبب الثاني -الذي ذكره، الرواية الثانية-: تدل على أنه موقف حصل مع المسلمين، لكن في إسناده قال: "هَذَا إِسْنَادٌ غَرِيبٌ، وَفِيهِ بَعْضُ الضُّعَفَاءِ." والمعتمد عند المفسرين أن هذه الآيات إنما نزلت في اليهود، إن هذا الفعل كان فعل اليهود. ماذا كانوا يفعلون؟ كما ذكر ابن كثير، أولًا كان بين النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- وبين اليهود موادعة -يعني حال من الهدنة- لكن هذا طبعهم في الخيانة، إذا مر بهم أصحاب النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- ينظرون له ويتكلمون حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بشيء من ذلك؛ إما قتله وإما أذيّته، فكانوا يدخلون الخوف على قلوب أهل الإيمان، وهم أهل غدر وخيانة ومتوقع منهم أي شيء، ويفعلون فعل التناجي وهم جبناء في الأصل، لكنهم يفعلون هذا الفعل لأجل أن يؤثروا نفسيًا على المؤمنين، وانظر إلى هذه الرعاية العظيمة من رب العالمين لنفوس المؤمنين؛ تأثيرهم هذا على نفوس المؤمنين، منعهم رب العالمين من هذا التأثير. واليهود جبناء، فكيف يكون حالهم؟ أنهم يحاولون بقدر المستطاع أذيّة المسلمين نفسيًا وتخويفهم، لأجل أن يدب فيهم شيء من

الانزعاج، وهذا كله مكر وخديعة. لعنة الله على اليهود، ما عاشوا ولا كانوا في مكان إلا وكان المكر والخديعة سابقهم، ووسيلتهم لا يعيشون إلا بها. يقول ابن كثير: "فَإِذَا رَأَى الْمُؤْمِنُ ذَلِكَ خَشيهم، فَتَرَكَ طَرِيقَهُ عَلَيْهِمْ. فَنَهَاهُمُ النَّبِيُّ -صلَّى الله عليه وسلَّم- عَنِ النَّجْوَى، بيّن لهم النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- أن هذا السلوك غير مرغوب فيه فَلَمْ يَنْتَهُوا وَعَادُوا إِلَى النَّجْوَى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ)."

بهذا فهمنا سبب نزول الآيات: أنهم كانوا يتناجون بما يزعج أهل الإيمان، وهذا الأمر نُبِّهوا عليه لكنهم بقوا عليه.

قال ابن كثير -رحمه الله-:

وَقَوْلُهُ: (وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ) أَيْ: يَتَحَدَّثُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ بِالْإِثْمِ، وَهُوَ مَا يَخْتَصُّ بِهِمْ، وَالْعُدْوَانُ، وَهُوَ مَا يَتَعَلَّقُ بِغَيْرِهِمْ، وَمِنْهُ مَعْصِيَةُ الرَّسُولِ وَمُخَالَفَتُهُ، يُصِرون عَلَيْهَا وَيَتَوَاصَوْنَ بِهَا.

هذه الآيات نزلت في قوم من اليهود والمنافقين، ونجمع معهم أهل النفاق لأن أغلب المنافقين في المدينة كانوا يهودًا، هؤلاء لما كانوا يفعلون ما يفعلون من التناجي بحضرة

المؤمنين، نهاهم الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم-، ولم ينتهوا، فنزلت هذه الآيات توبّخهم وتبيّن حالهم، ما حالهم؟ (وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ) يتحدثون، كلامهم الذي بينهم فيه إثم، يتكلمون فيما بينهم بالإثم، (وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ)، يتحدثون أيضًا بمكر، يمكرون بأهل الإيمان، يريدون أن يتعدوا على أهل الإيمان، ويتواصون بمخالفة النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، هذه هي حالهم.

لاحظوا هنا أن الله -عزَّ وجلَّ- وصف النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- بأنه "الرسول"، ذكره بعنوان الرسالة، وهذا لزيادة التشنيع عليهم واستعظام معصيته لأنه أُرسل من عند الله، جاءكم رسول من عند الله، وحال العقلاء في كل الأمم، حتى الكافرة: أن تحترم الرسول.

فالرسول يمثّل من أرسله، فاحترامك للرسول يمثّل احترامك لمن أرسله. لكن هو معلوم أنهم أهل مكر وخيانة، ووصل بهم الحال إلى قتل الأنبياء! فالنجوى منهم شأن بسيط مقابل الأعظم، لكن هنا ترى أن رب العالمين يحفظ المؤمنين ويرعى نفوسهم فلا يسمح للمنافقين والكافرين أن يؤذوهم ولو كان ذلك بالنجوى.

هؤلاء يتناجون بما هو إثم وتعدٍ على المؤمنين وتواصٍ بمخالفة النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-.

"وَمِنْهُ مَعْصِيَةُ الرَّسُولِ وَمُخَالَفَتُهُ، يُصِرون عَلَيْهَا وَيَتَوَاصَوْنَ بِهَا." هم نُهوا عنها لكن لا زالوا مصرين ويقومون بهذا الفعل الذي أتى بصيغة المضارع للدلالة على تمكن عودهم وتجدده، "يتناجون" كأنك تراهم وهم يتفاعلون هذا التفاعل.

قال ابن كثير -رحمه الله-:

وَقَوْلُهُ: (وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ) قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ:

حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشَجُّ، حَدَّثَنَا بن نُمَيْرٍ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ مُسْلِمٍ عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- يَهُودُ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ. فَقَالَتْ عَائِشَةُ: وَعَلَيْكُمُ السام واللعنة قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم-: "يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ". قُلْتُ: أَلَا تَسْمَعُهُمْ يَقُولُونَ: السام عليك؟ فقال رسول الله: "أو ما سَمِعْتِ أَقُولُ وَعَلَيْكُمْ؟ ". فَأَنْزَلَ اللَّهُ: (وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ).

وَفِي رِوَايَةٍ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهَا قَالَتْ لَهُمْ: عَلَيْكُمُ السَّامُ وَالذَّامُ وَاللَّعْنَةُ. وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- قَالَ: "إِنَّهُ يُسْتَجَابُ لَنَا فِيهِمْ، وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِينَا".

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا بِشْرٌ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ، حَدَّثَنَا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ مَعَ أَصْحَابِهِ، إِذْ أَتَى عَلَيْهِمْ يَهُودِيٌّ فسلَّم عَلَيْهِمْ، فَرَدُّوا عَلَيْهِ، فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم-: "هَلْ تَدْرُونَ مَا قَالَ؟ ". قَالُوا: سَلَّمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: "بَلْ قَالَ: سَامٌ عَلَيْكُمْ، أَيْ: تُسَامُونَ دِينَكُمْ". قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: "رُدُّوهُ". فَرَدُّوهُ عَلَيْهِ. فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ: "أَقُلْتَ: سَامٌ عَلَيْكُمْ؟ ". قَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم-: "إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَقُولُوا: عَلَيْكَ" أَيْ: عَلَيْكَ مَا قُلْتَ.

وَأَصْلُ حَدِيثِ أَنَسٍ مُخَرَّجٌ فِي الصَّحِيحِ، وَهَذَا الْحَدِيثُ فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ، بِنَحْوِهِ.

هذه الآية تخبر عن شأن آخر من شؤون مكرهم، عرفنا في الآية السابقة أنهم يتناجون بالإثم والعدوان، يعني الظلم وهو ما يدبرونه من كيد المسلمين، ويتناجون أيضًا بمعصية الرسول مخالفة لما يأمرهم به، ومن ذلك أنه نهاهم عن

النجوى وهم يتناجون أنهم يريدون أن يوقعوا إثمًا وعدوانًا ومعصية. وكل هذا فيه معصية للرسول.

من أحوالهم أيضًا أنهم إذا جاؤوا للرسول، جاؤوا وهم نيّتهم خبيثة؛ فيخرج أثر هذه النية الخبيثة في كلمات، يتبادر للسامعين أنها صالحة وفي حقيقتها هي باطلة فاسدة، فكانوا إذا دخلوا على النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- يخفتون لفظ: "السلام عليكم" يرخون صوتهم لأن "السلام عليكم" شعار الإسلام، ولما في هذه الكلمة من معنى السلامة، فيأتون

- إما يقولون: "أنعم صباحًا"، وهي تحية العرب في الجاهلية، وهم يريدون إشعال عوائد الجاهلية.

- أو كما في حديث عائشة أنهم يقولون: "السام عليك".

وهذه الكلمة قريبة من كلمة: "السلام عليكم" فيحيون النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- بغير لفظ السلام؛ لأن الله حيّاه بذلك، بخصوصه -صلَّى الله عليه وسلَّم- حياه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)[4] اللهم صلِّ وسلم على نبينا محمد، وأيضًا حيّاه بهذه التحية وحيّا جميع الأنبياء: (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ)[5] وتحية الله هي

---

[4] () الأحزاب: 56.

[5] () النمل: 59.

التحية الكاملة حيّا بها رسوله فقال: (وسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ) لكنّهم يحيون النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- بما لم يحيّه به الله، فيقولون: "السام عليك." وهنا نجد حديث عائشة واضحًا، أنها سمعت هذه الكلمة وتنبهت لها فردت عليهم وقالت: "عليكم السام واللعنة"، فقال الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم-: "يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ". يعني إذا قالوا هذه الكلمات فلا تقابلوها بكلمات مثلها، فقالت عائشة: "ألا تسمعهم يقولون: السام عليك؟" قال الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- : "أو ما سَمِعْتِ أَقُولُ وَعَلَيْكُمْ؟ " يعني: عليكم ما قلتم، أو عليكم السام واللعنة.

وأورد ابن كثير قوله -صلَّى الله عليه وسلَّم- "يُسْتَجَابُ لَنَا فِيهِمْ، وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِينَا" ما يدعون به أو يسلّمون به أو يتكلمون به سيرد عليهم.

قال ابن كثير -رحمه الله-:

وَقَوْلُهُ: (وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ) أَيْ: يَفْعَلُونَ هَذَا، وَيَقُولُونَ مَا يُحَرِّفُونَ مِنَ الْكَلَامِ وَإِيهَامِ السَّلَامِ، وَإِنَّمَا هُوَ شَتْمٌ فِي الْبَاطِنِ، وَمَعَ هَذَا يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ: لَوْ كَانَ هَذَا نبيًّا لَعَذَّبَنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ لَهُ فِي الْبَاطِنِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ

مَا نُسِرُّهُ، فَلَوْ كَانَ هَذَا نَبِيًّا حَقًّا لأوشك أن يُعَاجِلَنَا اللَّهُ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ) أَيْ: جَهَنَّمُ كِفَايَتُهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ (يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ).

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الصَّمَدِ، حَدَّثَنَا حَمَّادٌ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو؛ أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يَقُولُونَ لِرَسُولِ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم-: سَامٌ عَلَيْكَ، ثُمَّ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ: (لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ) ؟، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: (وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ) إِسْنَادٌ حسن ولم يخرجوه

وقال العوفي، عن بن عَبَّاسٍ: (وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ) قَالَ: كَانَ الْمُنَافِقُونَ يَقُولُونَ لِرَسُولِ اللَّهِ إِذَا حَيَّوْهُ: "سَامٌ عَلَيْكَ"، قَالَ اللَّهُ: (حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ).

هنا نجد هذا التفكير المعيب الذي ما يكون إلا من إنسان جاهل بالله وبعظمته، جاهل بكماله -عزَّ وجلَّ-، ورحمته، جاهل بأنه الظّاهر، -سبحانه وتعالى-، على خلقه، المتمكن منهم فهم في قبضته.

انظر ماذا يقولون بعدما يسلّمون على النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- وهم يبطنون إيذاءه بكلماتهم، يقولون: (لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ) كما ذكر ابن كثير: "أَيْ: يَفْعَلُونَ هَذَا، وَيَقُولُونَ مَا يُحَرِّفُونَ مِنَ الْكَلَامِ وَإِيهَامِ السَّلَامِ، وَإِنَّمَا هُوَ شَتْمٌ فِي الْبَاطِنِ وكأنهم لا يدركون أن الله الباطن المحيط بهم وبمقاصدهم وبكلامهم مع أنفسهم قبل مناجاتهم لغيرهم، وَمَعَ هَذَا يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ: لَوْ كَانَ هَذَا نبِيًّا لَعَذَّبَنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ لَهُ فِي الْبَاطِنِ؛ لَأَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا نُسِرُّهُ، فَلَوْ كَانَ هَذَا نَبِيًّا حَقًّا لأوشك أن يُعَاجِلَنَا اللَّهُ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا" هم عندهم شيء من الإدراك أن الله يسمعهم، لكنهم لا يعلمون عن الله أنه الظّاهر الذي لا يفوته أحد، بمعنى أنهم هنا يظنون أنهم إذا آذوا النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- مباشرة ينزل عليهم العقاب، فيقولون: "لو كان نبيًا لغضب الله علينا بسبب ما قلنا، فلعذبنا الآن بسبب قولنا له" والحقيقة أن هذا خاطر من خواطر أهل الضلالة الجهّال، وهو أنهم يتوهمون أن بهذه الطريقة يعامل الله خلقه. شأن الخلق أنهم يسرعون في الانتقام، أي أحد يعاندهم أو يفعل خلاف ما يرغبون يسرعون في الانتقام منه لأنهم لا يصبرون وليس عندهم حلم، ويخافون أن يفوتهم هذا الإنسان الذي آذاهم، فيهرب، يذهب، لذلك يسرعون بالانتقام، سبحان

الله! لكن رب العالمين، كما ورد في الحديث، «لَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنْ اللَّهِ، يَدْعُونَ لَهُ نِدّاً وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ»[6].

هؤلاء ما عرفوا الله، ما عرفوا أن من صفاته الحلم -سبحانه وتعالى- وأنه يصبر على عباده وأنهم مع ذلك في قبضته لا يفوتونه.

هم لأنهم يجحدون حقيقة البعث والجزاء، يحسبون أن عقاب الله، تعالى، يجب أن يكون في الدنيا، وهذا من الغرور في الحقيقة، وكما قال -عزَّ وجلَّ-: (ذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ)[7] من المعاني الفاسدة: أن يظن أحد أن دليل سخط الله على الإنسان أن يقع عليه أثر ذنبه الآن. فالدنيا ليست مكانًا لجزاء الطائعين ولا عقوبة العاصين، وإنما الأمر في الدنيا كله ذوق، الناس يذوقون طعم ما يفعلون لأجل أن يرتدعوا، يعودوا، ينكفوا، لكن العقوبة الحقيقية إنما هي يوم القيامة، وهنا في الدنيا الناس يذوقون فقط؛ لذا رد عليهم رب العالمين، بما يؤكد هذا المعنى: (حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ) يعني كافية لهم، كما يقول ابن كثير: "أَيْ: جَهَنَّمُ كِفَايَتُهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ (يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ)" في

---

[6] () أخرجه البخاري (6099).
[7] () فصلت: 23.

الدنيا إنما العذاب ذوق يذيقه الله الخلق من أجل أن يعودوا إليه، لكن لا تظن أن الدنيا مكان لثواب الطائعين ولا عقوبة العاصين، تكفيهم جهنم، وجهنم جمعت كل شقاء وعذاب تحيط بهم، ويعذبون بها، (فَبِئْسَ الْمَصِيرُ) بئس ما يصيرون إليه، وهم قد مهدوه لأنفسهم.

انتهى لقاؤنا اليوم، وبإذن الله نلتقي في نفس الموعد ونبتدئ بتأديب الله لأهل الإيمان في بيان حال المناجاة. سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.